معنى عبارة "ابن الله"

النص الإنجيلي الذي نتناوله في هذا الكتاب بالدراسة يستخدم كثيراً عبارة "ابن الله"، وهو ما أثار الكثير من التساؤلات، وكان سبباً في سوء التفاهم المؤسف بين الإخوة المسيحيين والمسلمين. لذلك أصبح مُهِمًّا العمل على توضيح ما تعنيه وما لا تعنيه هذه العبارة في الإنجيل الشريف.

الله تبارك وتعالى لم يتخذ صاحبة، ولم ينجب أولاداً من صاحبة، سبحانه وتعالى عن ذلك. فهذه الفكرة مرفوضة تماماً عند المسيحيين والمسلمين على السواء. وبهذا المعنى يتفق الإنجيل الشريف على أن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

في هذه الحالة، إذا كان الإنجيل الشريف لا يفيد أية علاقة جسدية، ولا أية ولادة تناسلية، فما المقصود من عبارة "ابن الله" التي تظهر في الإنجيل الشريف.لنسجِّل أولاً أن كلمات النصوص السماوية تحتمل عدة وجوه، حسب سياق الآيات التي تظهر فيها وأسباب نزولها. ففي القرآن الكريم تعني كلمة "أمر" فريضة، كما تعني أحيانا مسألة. وبذلك يكون المقصود في عبارة " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (سورة التوبة 67) هو الفريضة، بينما في سياق آخر مثل " لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم" (سورة الأنعام 58) يكون المقصود هو المسألة. وهكذا نرى أن اللفظ الواحد يحتمل عدة وجوه حسب سياق الآيات وسبب نزولها.

إن كلمة "ابن" تحتمل كذلك أكثر من معنى، حيث يمكن أن يقصد بها معناها الحرفي المرتبط بولادة الطفل من علاقة جسدية بين أب وأم، كما يمكن أن تأخذ معنى مجازياً رمزياً أو روحياً. فالعرب يقولون مثلاً إنَّ فلاناً "ابن الوطن" أو "ابن البلد" أو "ابن النيل". وهذا لا يعني أن كلاًّ من الوطن أو البلد أو النيل اتخذ صاحبة وأنجب منها أولاداً. سيكون الأمر مضحكاً إذا نحن قصدنا ذلك. إذ إن الكلمة "ابن" في هذه العبارات تشير ببساطة إلى العلاقة العميقة من حيث الهُويّة بين شخص ما وأحد الأمكنة.

واللغة العربية تستخدم كلمة "الأب" بشكل مجازي رمزي أيضاً. فكنية "أبو عمار" لا تعني أن لصاحبها ولداً اسمه عمار. بل تعني رمزيًّا أن هذا الشخص مهندس وهب قسطاً كبيراً

من حياته لبناء بلده. والطبيب الفيلسوف أبو البركات البغدادي (ت 470هـ/1077م) سمي كذلك لأن الناس اعتبروه مصدر بركات في حياتهم.

كما أن اللغة العربية تستخدم كلمة "الأخ" بشكل مجازي رمزي. فحين يخاطب شخص ما شخصاً آخر بكلمة "أخي" لا يعني ذلك أنهما ينتميان جسديًّا إلى أب واحد. بل الكلمة إقرار بانتمائهما الإنساني المشترك الذي قد يتضمن، أو لا يتضمن، العنصر الديني.

هناك عبارة مهمة جدًّا في اللغة العربية هي عبارة "بنت شفة"، وهي تفيد كل كلمة يتفوَّه بها شخص ما. فالقول "لم ينبس ببنت شفة" يعني أنه لم يتفوَّه بأية كلمة. إذ ليس المقصود أن شفتي الشخص قد اتَّخذتا صاحبة وأنجبتا بِنتاً هي كلمته، بل المقصود أن الكلمة التي يتفوه بها الشخص هي بمثابة بنت رمزية له لكونها تنبع من ذاته وتعبِّر عن شخصه.

والجميع يعرف كذلك عبارة "ابن السبيل" (سورة البقرة 177و215، سورة النساء 36، سورة الأنفال 41، سورة التوبة 60، سورة الإسراء 26، سورة الروم 38، سورة الحشر7). فالعبارة لا تعني أن السبيل اتخذ صاحبة وأنجب ولداً. بل تعني أن ابن السبيل هو شخص ضرب كثيراً في الطريق، لدرجة أن علاقة وثيقةً تطوَّرت بينه وبين السبيل، حتى إن الناس يفكِّرون في الطريق بمجرد أن يروه.

كلمة "ابن" استُخدِمت بشكل رمزيٍّ روحي في الحديث الصحيح أيضاً، حيث يقول نبي الإسلام مثلا: "أنا أولى الناس بعيسى الأنبياء أبناء علات.وليس بيني وبين عيسى نبي"(1). والعلات تعني حرفيا الجواري. لكن الحديث الشريف لا يعني طبعاً أن الأنبياء كانوا أبناء جوارٍ. معاذ الله! فعبارة "أبناء علات" تعني فقط انتماءهم لأب واحد من أمهات مختلفات. وهذا أيضاً لا يعني أنهم أبناء أب واحد أنجبهم جسديًّا من أمهات مختلفات. فهذا أمر غير معقول! إنَّ الحديث يرمي إلى وجود رابط روحي وطيد ووشيجة مشتركة بين جميع الأنبياء لكونهم يخدمون إلهاً واحداً. هكذا نرى أن كلمة "ابن" يمكن أن تستخدم للدلالة على رابطة روحية عميقة دون أن تتضمن أية إشارة إلى المعنى الحرفي للعلاقة الجسدية.

وفي التراث الصوفي يطغى استخدام هذه اللغة الرمزية للتعبير عن العلاقة الحميمة بين الإنسان وربه. فهم يشبهون عشقهم لله بالفراشة المنجذبة نحو النار. لكنهم لا يقصدون بذلك أنهم فراشات بالمعنى الحرفي للكلمة، أو أن الله عبارة عن لهيب نار. كما أنهم يشبهون هذا العشق الإلهي بالعلاقة بين العاشق والمعشوق. لكنهم لا يستخدمون هذه الكلمات بالمعنى الحرفي

المرتبط بعلاقات العشق بين بني البشر. لهذا ينبغي النظر إلى عبارة "ابن الله" على أنها إشارة للعلاقة الروحية العميقة التي لا تتضمن المعنى الجسدي للبنوة.

فالإنجيل الشريف لا يستخدم عبارة "ابن الله" بالمعنى الجسدي. بل نراها هنالك تتضمن أربع دلالات رمزية على الأقل:

أولاً: جميع الناس، بمعنى ما، هم أبناء الله. نقرأ في أعمال الرسل (17:28-29): "فنحن أيضاً من سلالته". والأمر عينه نجده في الإنجيل الشريف حسب لوقا حيث يقول إن آدم عليه السلام هو ابن الله (لوقا 3:38). وبهذا المعنى أيضاً يصبح كل بني آدم أبناء لله.

لكننا نعرف أن هذا لا يعني أننا أبناء الله بالمعنى الحرفي للكلمة، أي أبناؤه كما لو أنه أنجبنا. معاذ الله! فالعبارة تعني بشكل رمزي أن الله يحبنا مثلما يحب الأب الودود أبناءه. الله يهتم بنا، ويعتني بنا، ويؤدبنا، ويعلّمنا، ويطعمنا، الخ. وهذا المعنى، رغم وروده في روايات الإنجيل الشريف بشكل عام، ليس المعنى المقصود في رواية الإنجيل التي نحن بصدد دراستها.

ثانياً: هناك معنى خاص لعبارة "ابن الله" نجده في إعلان الإنجيل الشريف أن كل الذين يؤمنون بالسيد المسيح يصبحون أبناء لله. وهذا المعنى حاضر في الإنجيل الشريف الذي نحن بصدده والذي يقول مشيراً إلى السيد المسيح: "أما الذين قبلوه، وهم الذين يؤمنون باسمه، فقد مكَّنهم أن يصيروا أبناء الله: فهم الذين لا من دم، ولا من رغبة لحم، ولا من رغبة رجل، بل من الله وُلِدوا" (يوحنا 1:12-13).

هذا المقطع يقصي بشكل واضح أي معنى حرفي لعبارة "ابن الله". فهؤلاء أبناء الله، لا من الناحية الجسدية، ولكن بمعنى أن الله يتبنّاهم روحيًّا. الله يحبهم ويعتني بهم مثلما يحب الأب الحنون أبناءه ويعتني بهم.

ثالثاً: يستخدم الإنجيل الشريف عبارة "ابن الله" بشكل خاص للإشارة إلى الملك العظيم الذي كان بنو إسرائيل ينتظرون قدومه حسب نبوءات التوراة الشريفة. نقرأ في التوراة أن سيدنا داود عليه السلام أراد أن يبني بيتا لتمجيد الرب ولكن الرب لم يسمح بذلك، وقال له:

" وإذا تَمَّت أَيَّامُكَ لِتَنصَرِفَ إلى آبائِكَ، أُقيمُ مَن يَخلُفُكَ مِن نَسلِكَ الَّذي يَكونُ مِن بَنيكَ، وأُثَبِّتُ مُلكَه، فهو يَبني لي بَيتاً وأَنا أُثَبِّتُ عَرشَه لِلأَبَد. أَنا أَكونُ لَه أَباً وهو يَكونُ لِيَ ابناً، وأَمَّا رَحمَتي فلا أَنزِعُها عنه كما نَزَعتُها عنِ الَّذي كانَ قَبلَكَ. وأُقيمُه في بَيتي وفي مُلكي لِلأَبَد، ويكون عَرشَهُ ثابِتاً لِلأَبَد" (1أخبار 17:11-14).

يبدو أوَّل وهلة أن هذه النبوءة تشير بمعنى ما إلى سيدنا سليمان ابن سيدنا داود (عليهما السلام) الذي ورث عرش الملك عن أبيه، وبنى بيت المقدس. لكننا حين نتأمل كلماتها أكثر نجد أن الحديث عن الابن الذي سيُثبِّت الله مملكته إلى الأبد لا يمكن أن ينطبق على سيدنا سليمان، لأن هذا الأخير توفي وورث الملك من بعده ملك آخر. لذلك نقول إن هذه النبوءة تشير إلى شخص آخر من نسل داود سيثبت الله مملكته إلى الأبد.

بسبب هذه النبوءة صار بنو إسرائيل كلما اشتدت عليهم وطأة الجور والاضطهاد ينتظرون أن يبعث الله بينهم ملكاً باراً يحكم فيهم إلى الأبد، تماماً مثلما ينتظر المسلمون اليوم قدوم الإمام المهدي. وقد كان بنو إسرائيل يطلقون على هذا الملك المنتظر اسم "المسيح" ومعناه في اللغة العبرية " ذاك الذي مسحه الله علامة على منحه سلطة السيادة". وكانوا يسمونه أيضاً "ابن الله" لأن الله قال لداود: "أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً، وأمَّا رحمتي فلا أنزعها عنه."

ويبدو واضحاً من هذه الآية أن كلمتي "ابن" و"أب" لا تتضمنان أي معنى من معاني البنوَّة الجسدية تجاه الله. فالمسيح المنتظر ينحدر جسدياً من نسل داود. وبذلك نقول إن إشارة الآية إلى المسيح كابن لله هي إشارة رمزية تنبني على رباط المحبة والرحمة تجاه المسيح المنتظر.

هكذا يؤكد الإنجيل الشريف أن سيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا) له المجد تحققت فيه هذه النبوءة، وكان هو المسيح المنتظر، الملك العظيم. وبهذا المعنى تصبح عبارتا "المسيح المنتظر" و"ابن الله" مترادفتين من حيث تضمُّنهما المعنى نفسه في العديد من آيات الإنجيل الشريف الذي نحن بصدد دراسته. ومن هذه المواضع:

يوحنا (49:1). وفيه نرى نثنائيل أحد الحواريين الأوَّلين يقول لسيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا): "رابِّي، أنت ابن الله! أنت ملك إسرائيل!".

يوحنا (27:11). وفيه تقول مرثا إحدى الحواريات مخاطبةً سيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا): "نعم يا ربّ، إِنِّي أؤمن بأنك المسيح ابن الله الآتي إلى العالم!"

يوحنا (31:20): "وإنَّما كتبت هذه لتؤمنوا بأن يسوع (عيسى المسيح) هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم إذا آمنتم الحياة باسمه."

نلاحظ في هذه الآيات كلها أن عبارة "ابن الله" تعني ببساطة "المسيح المنتظر، الملك العظيم" لا أكثر ولا أقل، كما لا تتضمن أية إشارة إلى أي شكل من أشكال البنوة الجسدية.

رابعاً: في الإنجيل الشريف الذي نحن بصدد دراسته بعدٌ دلالي آخر مهم لعبارة "ابن الله"، وهو بعد دلالي قريب جداً من المعنى المتضمن في عبارة "كلمة الله". فقد سبق أن أشرنا أعلاه إلى أن العرب يعتبرون الكلمة التي ينطقها شخص ما "بنت شفته". كما أن مقالة "كلام الله" الموجودة أيضاً في هذا الكتاب تشير إلى أن كلاً من الإنجيل الشريف والقرآن الكريم يؤكد أن كلام الله أزلي قديم (غير مخلوق) قائم بذات الله، وأن الله خلق كل الأشياء بواسطة كلامه. أضف إلى ذلك أن كلاً من القرآن الكريم والإنجيل الشريف يعتبر السيد المسيح كلمة الله.

وفي العديد من آيات الإنجيل الشريف نجد أيضاً سيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا) يستخدم عبارة "ابن الله" وعبارات أخرى مشابهة للتعبير عن "ذلك النابع أزليًّا من الله مثلما تنبع الكلمة من المتكلم". وهذه بعض الأمثلة من تلك الآيات التي يتحدث فيها السيد المسيح عن نفسه:

أَنا والآبُ واحِد". فأَتى اليَهودُ بِحِجارَةٍ ثانِيَةً لِيَرجُموه. أَجابَهم يسوع (عيسى المسيح): "أَرَيتُكم كثيراً مِنَ الأَعمالِ الحَسَنةِ مِن عِندِ الآب، فَلأَيِّ عَمَلٍ مِنها تَرجُموني؟" أَجابَه اليَهود: "لا نَرجُمُكَ لِلعَمَلِ الحَسَن، بل لِلتَّجديف، لأَنَّكَ، وأَنتَ إِنسان، تَجعَلُ نَفسَكَ الله". أَجابهم يسوع (عيسى المسيح): "أَلَم يُكتَب في شَريعتِكم: قُلتُ إِنَّكُم آلِهَة؟، فإِذا كانَتِ الشَّريعَةُ تَدعو آلِهَةً مَن أَلقِيَت إِلَيهِم كَلِمَةُ الله – ولا يُنسَخُ الكتِاب – فكَيفَ تَقولونَ لِلَّذي قَدَّسَه الآبُ وأَرسَلَه إِلى العالَم: أَنتَ تُجَدِّف، لأَنِّي قُلتُ إِنِّي ابنُ الله؟ إِذا كُنتُ لا أَعمَلُ أَعمالَ أَبي فَلا تُصَدِّقوني وإِذا كُنتُ أَعمَلُها فصَدِّقوا هذهِ الأَعمال إِن لم تُصَدِّقوني. فتَعلَموا وتُقِنوا أَنَّ الآبَ فيَّ وأَنِّي في الآب". (يوحنا 10:30–38).

"إِنِّي معكم منذ وقت طويل، أفلا تعرفني، يا فيلبُّس؟ مَن رآني رأى الآب. فكيف تقول: أرنا الآب؟" (يوحنا 14: 9).

"فمجّدني الآن عندك يا أبت بما كان لي من المجد عندك قبل أن يكون العالم (يوحنا 5:17).

"الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ، أنا هو" (يوحنا 58:8).

"فكَما أَنَّ الآبَ يُقيمُ الموتى ويُحييهِم، فكَذلِكَ الابنُ يُحيي مَن يَشاء. لأَنَّ الآبَ لا يَدينُ أَحَداً، بل جَعَلَ القَضاءَ كُلَّه لِلابن، لِكَي يُكرِمَ الابنَ جَميعُ النَّاس كما يُكرِمونَ الآب: فمَن لم يُكرِمِ الابن لا يُكرِمِ الآبَ الَّذي أَرسَلَه." (يوحنا 5:21–23).

في هذه الآيات تصبح العلاقة الرمزية بين الآب والابن مرادفة للعلاقة بين الكلمة والمتكلم التي تؤكدها العبارة العربية "بنت الشفة". فكلمة الله تنبع أزليًّا من الله، وتكشف لنا

المصدر القدسي الذي تتبع منه. كما أن كلام الله لا يمكن أن ينفصل عن الله، بل يرتبط أزليًّا بالله. وكل ما خلقه الله، وما صنعه في هذا الكون، إنما تم بواسطة كلامه، حيث إنَّ تكريم كلام الله بهذا المعنى إنما هو تكريم لذاته تعالى.

وبناء على ذلك يمكن القول إنَّه إذا كان يحق لكل نبي أن يقول: "من سمعني فقد سمع الله" فإن الإنجيل الشريف يؤكد أن كلام الله قد أصبح مجسّداً قابلاً للرؤية بالنسبة لبني البشر، وذلك في شخص السيد المسيح الذي قال، له المجد من قائل: "من رآني، رأى الآب".